سورة النمل(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين (١) ﴾

تكلمنا كثيراً على هذه الحروف المقطَّعة فى أوائل السور ، وهنا (طس) وهما حرفان من حروف المعجم ، وهى تُنطق هكذا (طاء) و (سين) لأنها أسماء حروف ، وفَرْق بين اسم الحرف ومُسمَّاه ، فكلٌّ من الأمى والمتعلم يتكلم بحروف يقول مثلاً : كتب محمد الدرس . فإنْ طلبتَ من الأمى أن يتهجى هذه الحروف لا يستطيع لأنه لا يعرف اسم الحرف ، وإنْ كان ينطق بمُسمَّاه ، أمّا المتعلم فيقول : كاف تاء باء .

ورسول الله ﷺ كان أمياً لا يعرف أسماء الحروف ، فهى إذن من

---

(١) سورة النمل هى السورة رقم (٢٧) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٩٣ آية ، وهى سورة مكية . قاله ابن عباس فيما أورده السيوطى فى (الدر المنثور ٦/٣٤٠) وعزاه لابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل . وقد ذكر القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٣٥) الإجماع على أنها مكية كلها ، وقد نزلت بعد سورة الشعراء كما هى فى ترتيب المصحف ، وقيل سورة القصص كذلك . انظر : الإتقان فى علوم القرآن (١/٢٧) .

الله ؛ لذلك كانت مسألة توقيفية ، فالحروف (الـم) نطقنا بها فى أول البقرة بأسماء الحروف (ألف) (لام) (ميم) ، أما فى أول الانشراح فقلنا ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① ﴾ [الشرح] بمسميات الحروف نفسها ، فنقول : أَلَم .

و ﴿ تِلْكَ .. ① ﴾ [النمل] اسم إشارة للآيات الآتية خلال هذه السورة ، وقُلْنا : إن الآيات لها مَعَانٍ متعددة ، فقد تعني الآيات الكونية : كالشمس والقمر ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ③⑦ ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا .. ②① ﴾ [الروم] وهذه الآيات الكونية هى التى تلفتنا إلى عظمة الخالق - عزَّ وجلَّ - وقدرته .

والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة للرسل ، والتى تثبت صدْق بلاغهم عن الله ، والآيات بمعنى آيات القرآن الحاملة للأحكام ، وهى المرادة هنا ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ① ﴾ [النمل]

وسبق أنْ قال تعالى : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ① ﴾ [الحجر] فمرة يقول ﴿ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ① ﴾ [الحجر] ومرة ﴿ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ① ﴾ [النمل] ويأتى بالكتاب ويعطف عليه القرآن ، أو يأتى بالقرآن ويعطف عليه الكتاب ، مع أنهما شىء واحد ، فكيف إذن يعطف الشىء على نفسه ؟

قالوا : إذا عطف الشىء على نفسه ، فاعلم أنه لزيادة وَصْف الشىء ، تقول : جاءنى زيد الشاعر والخطيب والتاجر ، فلكلٍّ صفة منها إضافة فى ناحية من نواحى الموصوف ، فهو القرآن لأنه يُقرأ فى الصدور ، وهو نفسه الكتاب لأنه مكتوب فى السطور ، وهما معاً

نُسميهم مرة القرآن ومرة الكتاب ، أمّا الوصف فيجعل المغايرة موجودة .

ومعنى ﴿ مُبِينٍ ① ﴾ [النمل] بيِّن واضح ومحيط بكل شيء من أقضية الحياة وحركتها من أوامر ونواهٍ ، كما قال سبحانه : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ③⑧ ﴾ [الأنعام]

وسبق أنْ حكينا ما حدث مع الإمام محمد عبده[1] - رحمه الله - حينما كان في فرنسا ، وسأله أحد المستشرقين : تقولون إن القرآن أحاط بكل شيء ، فكم رغيفاً في إردبّ القمح ؟ فدعا الإمام الخباز وسأله فقال : كذا وكذا ، فقال المستشرق : أُريدها من القرآن ، قال الإمام : القرآن قال لنا : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ⑦ ﴾ [الأنبياء]

فهو كما قال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ③⑧ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② ﴾

الهدى : يأتي بمعنيين : بمعنى الدلالة على طريق الخير ، وبمعنى المعونة ، فمن ناحية الدلالة هو هُدىً للمؤمن وللكافر على حَدٍّ سواء ؛ لأنه دلَّ الجميع وأرشدهم ، ثم تأتي هداية المعونة على حسب اتباعك لهداية الدلالة .

---

(١) هو : الشيخ محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركماني ، مفتي الديار المصرية ، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام ، ولد في قرية شنرا من قرى الغربية بمصر (١٨٤٩ م) نشأ في محلة نصر بالبحيرة ، تولى منصب القضاء وتوفي بالإسكندرية (١٩٠٥) عن ٥٦ عاماً ، ودفن بالقاهرة . له مؤلفات كثيرة . [الأعلام للزركلي ٦/٢٥٢].

فمَنْ أطاع الله وآمن به وأخـذ بدلالته ، فكأن الحق سبحـانه يقول له : أنت استـأمنتنى على حركـة حيـاتك وأطعتنى فى أمـرى ونهيي ، فسوف أخفف عنك وأهوِّن عليك أمر العـبادة وأعينك عليها ، وهذه هى هداية المعونة الـتى قال الله عنها : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

وكـذلك الكافر الذى لـم يأخذ بهـداية الدلالة والإرشـاد ، واختـار لنفسه طريقاً آخر يُعينه الله عليه ، ويُيسِّر له ما سعى إليه من الكفر ؛ لذلك يخـتم الله على قلوب الكافرين حـتى لا يدخلها إيمـان ولا يخرج منها كفر .

لكن الهداية هنا : أهى هداية دلالة ، أم هداية معونة ؟

نقـول : هى هداية معـونة ، بدليل قـوله تعالى بعـدها ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النمل] فما كانوا مؤمنين إلا لأنـهم مهديون ، والبُشْرى لا تكون إلا للمؤمنين ، إذن : هى معونة للمؤمنين بأنْ يزيدهم هدايةً إلى الطريق السَّوىّ ، وإلى جنات النعيم ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)﴾ [التحريم]

ولو أن الهداية هنا بمعنى الدلالة التى تأتى للمؤمن والكافر لكانتْ بشرى وإنذاراً ، لكن الآية ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النمل] فتعيَّن أن يكون المعنى هداية المعونة وهداية البشرى .

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③﴾

المؤمنون هم أصحاب عقيدة الإيمان ، وهو أن تؤمن بقضية الحق الواحد الإله المـختار الفاعل الذى لـه صفات الكمال ، تؤمن بهـا حتى